القيم الاجتماعية والانسانية
فى
رباعيات الياس فرحات

دكتـــور
عبد الرحيم محمود زلط

كلية الآداب - جامعة طنطا

القيم الاجتماعية والانسانية فى رباعيات الياس فرحات

الياس بن حبيب بن جرجس فرحات أحد أعلام شعراء المهجر الأمريكى الجنوبى والمولود فى كفر شيما من أعمال لبنان عام ألف وثمانمائة وثلاثة وسبعين ، وكان حظه من التعليم لم يتعد المرحلة الابتدائية ، حيث انصرف إلى المهن اليدويه كالنجارة وصناعة الكراسى من القش ، وكان ينظم الشعر العامى فى فترات راحته فكان زجالاً موهوبا على الفطرة يغذيها بذكاء متوقد .

وهجر الياس فى صباه تلك الحرف اليدوية ليتعمد على ما تعلمه وليعمل منضدا لحروف فى جريدة « الوطن » ثم جريدة « الحقيقة » ثم مجلة « البطريركية الأرثوذكسية » فى دمشق وكما هجر صباه هجر بلاده ورحل إلى البرازيل ، ثم تزوج وصار له أولاد وأخذ يصارع حياة المهجر ويكابد مرارة الكفاح ويعانى فشل المسعى بين تربية المواجن والماشية وصنع الأطعمة الشرقية وتصفيف حروف المطابع والتجول لحساب التجار الكبار والطواف بالآفاق لجمع اشتراكات الصحف ونحو ذلك مما صوره فى قصيدته « حياة مشقات » التى يشير فيها إلى سوء حظه والى تكرر أيامه ولياليه على وتيرة واحدة لا تترك أملا فى تحسن أو تبدل ، وقال معبرا عن ذلك :

وأستعرضُ الأيامَ يومى الذى مضى دليلٌ على يومىَ الذى أترقبُ
طوى الدهرُ من عمرى ثلاثين حجةً طويت لها الأصقاعَ أسعى وأدأبُ
أغرب خلفَ الرزق وهوَ مشرقٌ وأقسمُ لو شرقتُ كادَ يغربُ

وعن تنقله على عجلة صعب يجرها جوادان ، وتقطع المسافات الطويلة بحثا عن مكسب يأتيه أو رزق يرضى به صاحب التجارة ، أما طعامه وشرابه .

مما كان يصادفه فى الطريق حتى قال :

فنشربُ مما تشربُ الخيلُ تارةً وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحنُ نشربُ

وعن حياته بين أصناف البشر الذين كان يتعامل معهم ويصبر على ما فيهم من بله وضعف ذكاء :

أعاشرُ من لو عاشرَ القرد بعضهمُ لما رد عن داروين قبرٌ مقبُ
وأنصت مضطرا إلى كلّ أبلهٍ كأنى بأسرار البلاهة معجبُ

كل هذا ينتهى فى آخر الأمر إلى أن هذا البؤس الذى عاش فيه منذ نعومة أظفاره حتى صار مسئولا عن أسرة قد علمه الكثير من طباع الناس ، وهو المثقف ذاته الذى لم يقرأ صفحة فى علم النفس وإنما استقى ما فكر فيه وما دار فى خياله ونظمه درراً من عيون الحكمة من صفة التأمل وبعد النظر والتفكر فى صمت ، وكان كل ذلك يزيده صلابة وقوة إرادة وقدرة تحمل حيث قال :

أقولُ لنفسى كلما عضها الأسى فآلمها صبراً ففي الصبرِ مكسبُ
لئن كان صعبا حملك الهم والأذى فحملك من الناس لا شكَّ أصعبُ
فلولا إباءٌ مازجَ الطبع لمْ يكنْ لمثلي مجيء فى البرايا ومذهبُ
حياةٌ مشقاتٍ ولكنْ لبعدها عن الذُّلِ نصفو للأبيّ وتعذبُ

لقد كان فرحات مشهوراً بصلابة الرأى ، فلا يلين ولا يحابى ، ولو أدى ذلك إلى إطالة شقائه أو إضاعة أصدقائه أو إلى تفويت فرص ثمينة عليه وهو القائل :

لا تنتظر أن تراني راضياً فأنا أرضي ضميرى ولو أغضبتُ أصحابي

وصلابته تفرض عليه أن يكون صريحا فى إبداء رأيه ، جريئا فى قالة الحق حتى تراه يقول :

وإنّى لمطبوعٌ على الصدقِ جاهرٌ بآياته والنصلُ فى النطع يقطرُ
أقول لذى العينين «إنكَ مبصرٌ» وللأعورِ المغرورِ «إنكَ أعورُ»

وكان ذا تحدى وكبرياء لنوائب الدهر ، فلم تلن قناته أمام ظروف الحياة الشاقة التى كان يحياها ، ولو اقتضى الأمر أن يقف محاربا دنيا الناس ليصل إلى هدف اسمى فى حياته ، فقال يخاطب دهره :

فكنْ بادهرُ ماءً أو سرابا فإنّي عنك والدنيا نؤومُ
لبستُ لكلّ سيفٍ منك درعاً تحدثُ عن مناعتها الكلومُ
أنا ابنك دونَ شكٍّ غيرَ انّي غريمكُ حينَ يفتقدُ الغريمُ

كما امتاز بيقظة الضمير وعفة النفس ، فقال فى قوة نفسية عظيمة وفضيلة كبرى برغم ما كان فيه من تعاسة وبؤس حياة :

توالتْ همومُ الحياةِ عليّاً ولولا ضميري لعشتُ خلياً
فكمْ ثروةٍ تعجزُ الحاسبينا تسلمتُ وهى لبعض التجارِ
فقلتُ أفرّ بها هارباً فقالَ ضميري حذارِ حذارِ
فأرجعتها وغسلتُ يديا ولولا ضميري لكنتُ غنياً

إن تعلم فرحات لنظم الشعر لم يكن نتيجة دراية أو دراسة لعلم العروض أو استظهار دواوين الشعراء العرب قبله ، أو حفظه لعيون قصائد العرب فى العصور المختلفة ، أو مساجلاته مع أترابه حتى قوى عوده فى النظم ، وإنما كانت الحياة مدرسته ، طيورها المغردة ، ونسيمها العليل ، وجداولها الضاحكة ، ونظرات الحسان وعبرات الحزانى ، فحق له أن يعتبر كل ذلك جامعة تضمه :

هذا الكونُ جامعةُ الجامعاتِ وذا الدهرُ أستاذها المعتبرْ
ففى المبكيات بيان جميلٌ وفى المضحكاتِ معانٍ غررْ

لقد كان فرحات شاعرا مطبوعا أنشد الشعر قبل أن يعرف أعاريضه . وهو ركبى متوقد الفؤاد شديد العارضة لو صادف بسطة من العيش ولولا حملان ثقيلان ناء تحتهما من فقر وعيال لعزّ نظيره بين الشعراء ... لقد أجاد فرحات فى جميع ألوان الشعر ، ولكنه فتح باب الحكمة على مصراعيه وكذلك الأمثال والمواعظ وكان صادقا فى أحاسيسه ومشاعره صدقه فى سلوكه ، وكان يمضى فى نهجه دون أن يبالى بالأشواك تملأ دربه وعورةً وألما .

لقد كان من أهم ما نظمه فرحات تلك المجموعة التى سماها « رباعيات فرحات » وهى عبارة عن كتيب صغير الحجم يحتوى على شعرية ذات أربعة

الأبيات في موضوعات مختلفة بين دينية واجتماعية ووطنية ووصفية حكمية ويغلب على أكثرها روح التهكم والنقد اللاذع والتشاؤم ، ولكنها تدل على إخلاص وإنسانية ونبل في القصيدة الإجتماعية . وتختلف تلك الرباعيات عن رباعيات سابقيه من حيث وحدة الغرض أو طول القصيدة ، وإنما هي خلاصة فكر وثمرة خيال متوقد ، وتجربة شعرية صادقة عاشها فرحات وعبر عنها بإخلاص وشعور فياض ووجدان المجرب الناصح الأمين .

إن هدف فرحات الأول من نظمه تلك الرباعيات هو بناء مجتمع صحيح متكامل على أسس قوية وقيم إجتماعية وعدة إنسانية خالصة ، فان فرحات رأى أن يقيم المدينة الفاضلة في مجتمعه ، وحق له فقد رأى طباع الناس المتغيرة ، ورأى تلونهم وتدهور أخلاقهم متى تمكن الوضيع منهم ، وتفشى فيهم طباع غير الشرفاء الذين اعتبروا المجتمع قسمة ونهباً بينهم فداسوا فقراءهم وامتصوا دماء ضعافهم ، وأصبحت حياة الغاب أسعد حظاً من حياة البشر وما فيها من طباع صاغها فرحات نظماً ، خاصة وأن فرحات قد كره الأغنياء الذين كانوا لا مثاله في وطنه الأم وأرغموهم على الرحيل والهجرة ، ولما عاش بديار الغربة في مهجره لم يسعد بمن عاشر ، ووجد مجتمعه اختلفت فيه السبل الخلقية وكأن عنوان حياة ذلك المجتمع البقاء للأقوى والإقامة للمعتدى على الآخرين خاصة وأن هؤلاء الناس وجدوا في مجتمعهم الجديد أساليب من الحياة لا تتفق والقيم الإنسانية ، ووجدوا أنماطاً من الناس يميلون إلى التحلي بتلك الخلق ليكونوا عصبة شعارها حطم أنْ تحطمْ وكأنها جاهلية القرون الأولى عادت على أرض المهاجرة في أمريكا .

كل هذه الصور التي شاهدها فرحات وعاش بينها جعلته يقف مشدوداً مصورا بصدق وقرب من كل منظر يراه حتى تمثلت فيه كل براعة تصويرية لما رأى ، وكانت خلاصتها تلك الرباعيات التي تعتبر قمة الدراسة الإنسانية لطباع البشر وتصور تصرفاتهم وتعدل سلوكهم في ثوب الحكمة والموعظة الحسنة .

وإذا استعرض الإنسان ما تضمنته الرباعيات من قيم اجتماعية ، ودستور أخلاق ، وحكمة وعظية لها له ما احتواه ذلك الكتيب الصغير بما لم يتسع له

فكر مشاهير الشعراء فى العصور السابقة .

وقد صنف الباحث هذه القيم فى تلك الرباعيات إلى مجموعات متجانسة ، وقد ألفت بينهما وحدة الفكر ، وبعد النظر الذى يدل على رجاحة العقل وسعة الأفق ، وقد دارت حول العناصر الآتية :

أولا : الدعوة للإخاء والتواضع :

لم يثبت فى تاريخ البشرية أن عاش قوم فى تنافر أو تباعدت قلوبهم ومشاعرهم ، وعمهم الحقد وملأ صدورهم الكبر ، فالمجتمع البشرى فى أى بقعة من الدنيا لا ينسجم حياة أو ينعم بالائتلاف إلا إذا كان الاخاء رائده والتواضع هدفه الأسمى ، فقد حثت الكتب السماوية جميعها على الإخاء وأوصت به حتى تنعم الإنسانية بما تضمنته وصايا الدين وحثت عليه .

فما أحسن دعوة فرحات للإخاء بدءً بالجار والحث على رعاية حقوقه بصرف النظر عن معتقداته ، فالإخاء حق فى الدنيا لكل إنسان يعيش مرتبطا مع غيره من بنى البشر ، عليه واجبات تجاه الجميع وله لديهم حقوق ، وفى هذه الدعوة التى صرح بها فرحات بعد نظر فيما هو القوم فى بعض بقاع العالم العربى من وطن واحد وبينهم شقاق وحروب طاحنة استمرت عشرات السنوات فى لبنان واليمن واندلعت منذ أكثر من ست سنوات بين العراق وايران ، ولو تدبر الناس أمر دينهم فيما يأمر به من المحبة والاخاء والسلام والامان للجميع لعاش الناس اخوة يذكرون نعمة الله عليهم إذ كانوا اعداء فألف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا ، وانما هى دعوة الإفساد والمطامع وغرائز السيطرة والبطش والإستعلاء وعدم احترام حقوق الانسان ، فلو تدبر الناس أمورهم الدينية لما وقعوا فيما هم فيه الان ، ولو أدركوا معنى أبيات فرحات لتكاتفوا صفا واحداً ضد عدو واحد ، واشتركوا بكل جهد ضده ، وحافظوا على عدتهم وعتادهم لينالوا ممن ساموهم سوء العذاب . وسجلات التاريخ خير شاهد وناصح لهم وليتهم استمعوا إلى فرحات حين قال (رباعية ١) :

يا جار جار على القاطنون كما ... جاروا عليك ولم ترحل ولم تنر
خشي الغريب وخشي بعضنا وإذا ... حلّ البلاءُ شكونا الضيم للقمر
فيما انقاطعُ والأوطانُ تجمعنا ... قمْ نغسل الثأر بما فيه من وضر
مادمت محترماً حقيٌّ فأنت أخي ... آمنت بالله ثمّ آمنت بالحجر

أما نظرة فرحات للتواضع فقد صاغها في رباعيتين ، بين في كل واحدة كيف يكون الإنسان متواضعا حتى يألفه الناس وينعم بأخوتهم الصادقة ، ويأمن من تلونهم متى كان متواضعا لين الجانب ، فالناس خصوم للمتعالي الباطش ، وكارهون لكل من تطاول عليهم أو حط من شأنهم فالكل لآدم وآدم من تراب ، ويضرب فرحات بذلك الهدف أحسن الأمثال معتقدا أنه كم من عظيم في قومه ترفع عليهم وهجر التواضع وظن أنه بمكانته الإجتماعية الرفيعة بينهم قد بلغ كل ما يخطر على خلد الإنسان ، فما هوى كانت القاضية ، فلم يجد من العوامل التي رفعت قدره في زيف ما يقوم عليه أو يشد أزره ، فندم ولات حين ندامه فخير لأمثاله يتحلوا برداء التواضع حتى تعمهم الرفعة والسكينة (رباعية ٤٤) :

يأمنْ يحاولُ أنْ يبقى بقوته ... حكماً أصرَّ على تفنيده القدرُ
لي للزمانِ متى هبتْ عواصفه ... إنَّ الغصون إذا لمْ تلو تنكسرُ
كمْ عاقلٍ بلغ الجوزاء ثمَّ هوى ... عنها إلى دركاتِ الذّل ينحدرُ
يرنو إلى مجدد والسيفُ مشتملٌ ... والتاجُ ممتهنٌ والعرشُ مندثرُ

ومن دعوته للتواضع كذلك قوله لمن يترفع وكأنه على عرش الملك باق ، وكأن الأيام تدوم له بخيرها وثرائها ، فيهتف منددا بأصحاب التيجان أولئك الذين يظنون الناس عبيدا لهم ، ويبيعون أردية الكبر والغطرسة ويظنون الخلود في الدنيا وما هم فيها بمخلدين ، وإنما إلى حياة أخرى فيها المساواة وتطبيق العدالة في كل صغيرة حيث لا يظلم ربك أحدا ، وحيث لا ملك لأحد في الآخرة وإنما الملك لله الواحد القهار (رباعية ٨٨)

أربُّ التاج إنك بين جبل ... يكبلُ تلك أهوان بما تكيل

وإنك فوقَ عرشٍ لستَ تدري أيبقى اليومَ عرشك أمْ يزولُ
تتيهُ على الأنامِ وتزدَ ربهمْ ولكنَّ عمرُ تيهك لا يطولُ
فملكك زائلٌ وغناك ماضٍ وحالك لا محالةَ مستحيلُ

فلو نظر أى انسان إلى فكر فرحات فى ذلك البيت الأخير من أن الملك زائل والغنى متحول إلى فناء ودوام الحال من المحال لأدرك حقيقة كل الناس ، وتعقل كما تعقل فرحات فى رسم تلك الصورة بهذه البراعة النفسية وكأنى به وقد صور الموقف اجتماعيا ونفسيا منفرا من هؤلاء الذين يتمسكون بالفانية ويسلكون سلوك الأشرار المتكبرين .

ثانيا : القدوة الصالحة :

أبرز فرحات صوراً عديدة فى لوحات فنية كيف يكون المرء قدوة صالحة لغيره ، مؤكدا أن هذه القدوة هى خير بناء فى المجتمع وأحسن لبنات فيه ، وبقدر ما يحتفظ المجتمع من هذه العناصر بقدر ما تكون درجة تقدمه بين شعوب العالم ، فلا خير فى مجتمع قد فقد قدراته الصالحة ، تلك المجموعة من الناس الذين يحملون أمانة الرقى والتقدم بأفعالهم وخصالهم وشمائلهم التى تخلد عبر الأجيال بعد رحيل أصحابها .

ولو طالعنا صورة القدوة الصالحة فى سجلات التاريخ لوجدنا مشاهير الصحابة الذين عاشوا فى مدرسة النبوة ، ونجد تلاميذ مدارس العلماء الصالحين والفقهاء المبرزين فى محيط العالم الاسلامى والعربى ، كما نجد أساطين العلم وفروعه المختلفة الذين عاشوا فى الحضارات المختلفة وقدموا للإنسانية ما تشهد به طبقات العلماء وأولو الرأى والتجربة .

وفى محيط التربية نجد جولات فرحات حيث يركز على أن القدوة الصالحة تكون فى المعلمين والآباء الذين يلقنون أبناءهم دروس الحياة وسيلكون بهم سبل الهداية وصدق الرعاية ، فمن لم يكن قدوة صالحة لابنه أولتلميذه خاب وخسرت تجارته ، وكسد سوقه فى مجتمعه (رباعية ٥٠) .

المرءُ يولدُ شريراً فإنْ عقلتْ عينُ المهذب عنه هكذا نشأ
والأرضُ صلاحاً وإن قلتْ من طاب من أهلها قد بأومنْ خبثا
أنت المطالبُ فيها عنْ بنيك إذا صلُّ المفاسد فى آذانهمْ نفثا
إنْ لمْ يكنْ قدوةٌ للولد صالحةٌ أنفقتَ مالك فى إصلاحهمْ عبثا

ومن صور القدوة الصالحة التى تناولها فرحات مصاحبة الكرام ولو على شظف العيش وقوته والبعد عن صداقة الأدنياء ولو تقلبوا فى رياض الثراء ، وكذلك يدعو إلى الصبر فى صداقة الأبى فان حياته نور وإن اعترضه الإظلام والضيق أحيانا ، فقد تعودت نفوسهم على الرفعة والإباء والأنفة والوفاء بما عاهدوا والآخرين عليه ، بينما ينفتن أدنياء الناس فى التستر وراء خدعهم وما يقدمون عليه من مفاسد مقلقة ومهلكة حبا فى المظهرية والفتن (رباعية ١١٠) :

سرْ والكريمِ على القتادِ ولا تسرْ والأدنياءِ على نسيجِ المخملِ
واغشَ الظلامَ مع الأبى فنيله مهما تكبد وادلهمْ سينجلي
إنَّ الأبى يبيعُ أطلسَ زوجه وحليها ليفى الديونَ إذا ابتلى
وبنى الدناءة يسرقونَ ليشتروا لنسائهمْ حللَ الأطالسِ والحلى

ومن صور القدوة الصالحة ان يتخير الانسان شريكة حياته من صاحبات المنبت الطيب ، الا يغتر الانسان باختيار زوجه من ربيات القصور ، فان من ينظر لأن تكون حياته مرتبطة بالثراء فقد خاب وخسر ، ومن اطمأنت نفسه إلى اختيار ذات الأصل العريق التى تتحمل أعباء الحياة ومشقاتها فهو الرابح السعيد ، فان خير النساء من حسنت منبتاً وصبرت محتسبة على ماقى الحياة من ضيق حتى يحمد ذلك لها (رباعية ١١٦) .

إنْ كنتَ ترغبُ فى الزواجِ فلا تسرْ بينَ القصورِ بأعينٍ شرهاتِ
فلبعضِ أزهارِ الحقولِ محاسن تزرى بكلِّ أزاهرِ الجناتِ
ولطالما شقى الذين تزوجوا مالاً وجاهاً لا تجيد صفاتِ
ولطالما حملوا الهوانَ لأنهمْ طلبوا الكرامةَ فى بناتِ سراةِ

ثالثا : السعى لطلب الرزق والقناعة :

من أحسن ما قاضت به قريحة الشاعر الياس فرحات أن يدعو الإنسان إلى السعى لطلب رزقه ، والا يعيش عالة على غيره فالإسلام وكل الأديان قد نهت عن أن يعيش الإنسان عالة وان عليه أن يكد ويكدح فلا حياة لكسلان أو متخاذل ، وطلب الرزق يتطلب القناعة عما فى يد الآخرين ، فمادام الإنسان ساعيا فهو المحقق أمله والمقنع ذاته بكل ما يحصله .

ومن صور السعى فى طلب الرزق ما ذكره فرحات قائلا (رباعية ٢٨) :

حمل الجهولُ إلى البارى ليرزقهُ قوتاً ونامَ فعاش العمر جوعانا
ولوْ سعى فى سبيل القوت مجتهداً لكانَ من أمره غيرَ الذى كانا
لينَ العرائنُ للآسادِ رازقةً كبشاً وقدْ يرزقُ النحولُ قطعانا
والحظُّ يقدمُ بعضَ الناسِ عنْ عمهِ حيناً ويخذلُ كلَّ الناسِ أحيانا

إن هذه الصورة التى تحدث عنها فرحات تعيد الإنسان إلى موقف الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب حين رأى عابدا يعكف بالمسجد ، فسأله من أين يرزقه فقال : ان له أخا يسعى ليرزقه ، فنهره وقال : قم وارتزق فأخوك خير منك ، وبين له أن السعى لطلب الرزق خير من الاعتكاف فى المسجد للعبادة فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وذلك تصديق لقول الحق تبارك وتعالى « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك ١٥) .

ومن ضروب السعى لطلب الرزق أن يقنع الانسان بما يهبه الله ، فقد قسم سبحانه نعمه بين الناس بالعدل ، فهذا وهبه مالا وذا علما والاخر قدرة وقوة اقناع وذاك حجة وبيانا .. والله عادل فى تقسيم نعمه ولا راد - لقسمته أو احتجاج على تقسيمه النعم بين خلائقه وليس على الإنسان إلا أن يقنع بما وهب ، ففيه ثراء مفخرة (رباعية ٨٥) :

لعمرك إنْ منْ أعطى فلاناً ضروبَ المالِ أعطاكَ اليراعا
فلا تطمعْ بابدالِ العطايا ولا تطلبْ لها فيكَ اجتماعا

أترجو أنْ تصير أخا ثراءٍ لتقدرَ أن تقولَ وأنْ تطاعاً
وهذا القرشُ تدنو منهُ شبراً فينفرَ منكَ مبتعداً ذراعاً

ويصرح فرحات بأن السعي لطلب الرزق فرض فلا ينبغي على الانسان ان يلجأ في مصدر رزقه إلى الآخرين مهما كانت درجة قرابتهم ، وكذلك شأن من يمد يده ليساعده الآخرون يتساوى ومن يلقي بنفسه إلى التهلكة وسرعان ما تهون عليه حياته كما هانت عليه نفسه كسلا وعالة على الناس (رباعية ١٠٠) :

جهادكَ في سبيلِ العيشِ فرضٌ فلا تلجأْ لعمٍّ أوْ لخالِ
فكمْ عمّ الوبالُ منهُ وكمْ خالٍ من الاخلاصِ خالِ
إذا اليسرُ استحالَ عليكَ فاجمعْ لماً يغنيكَ عنْ طلبِ النوالِ
فنا في مدِّ عنقكَ للمواضي صعوبة مدِّ كفكَ للسؤالِ

وهذا المعنى مصداق لقول رسول الله ﷺ لأن يأخذ أحدكم حبلاً ويحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه وقوله عليه الصلاة والسلام « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

أما دعوة فرحات للرضا والقناعة فتتمثل في هذا القول الذي يعيب فيه على الناس تكاسلهم وتجاهلهم سبل الحق في أن يقنعوا فالله قد قسم لكل إنسان رزقه وكفله له ، وقد عاب على الناس كيف أنهم توصلوا إلى الدرجات الرفيعة من العلم والمعرفة وما عرفت القناعة إليهم سبيلا .

ولعل فرحات بذلك يثير قضية إنسانية نفسية وهي سيطرة الجشعين على ذوي الحاجة واضطهادهم وعدم قناعتهم بما وهبهم الله مما يثير حفيظة النفوس ويورثها البغضاء (رباعية ١٢٩) .

ما للأنام يفتشون عن الغنى والشمسُ تغمرُ أجيةً وسهولا
تغدوا لمقصدهم سبيلاً مظلماً ومضوا فضلوا مرشداً وسبلا
طاروا طلوعاً في الفضاء تمنياً وتفضا خاضوا الخضم نزولا
وتعلموا كلَّ الفنونِ ولمْ يزلْ فنُ القناعةِ عندهُم مجهولا

ومن ثمرات القناعة أن يدرك الإنسان أن ما جمعه ليس له منه إلا ما انفق ومن ثم فإنه لا يبخل على نفسه بالطيبات حين يدرك أن الإنسان يترك خلفه ما جمع من مال فاض عن حاجته ، فخير له أن يكون نفوعا حين يجمع ، ولا يحرص على ان يكون من الذين يتطلع الناس إليهم بكثرة ما جمعوا ، وليتذكر دوما ان الانسان دخل الحياة عاريا وخرج منها كذلك ، فخير له ان يكون نفوعا راضيا لا يدخل الهم على نفسه فيفسد عليه ملذاته (رباعية ٢) .

يا ساكنَ القصرِ لا تأسفْ لفرقتهِ سكنى القصورِ وسكنى الترب سيانِ
إنّ انتقالكَ منْ قصرٍ إلى جدثٍ مثل انتقالكَ منْ حانٍ إلى حانِ
جئتَ الحياةَ فقيراً عارياً دمعاً فاذهبْ عُرَيّاً بتابوتٍ وأكفانِ
واتركْ ورامكَ ما جمعتَ من ذهبٍ فالمالُ مستقرٌ في العالمِ الثاني

رابعا : من ألوان الناس :

لم يكن فرحات بالرجل الحكيم الذى أصدر الحكمة النظمية فحسب ، بل كان العالم الإجتماعى الدارس لأصناف البشر ، وسلوك كل فى الحياة ، ومتى يكون الانسان واضحا ومتى يستدعى المكر والخديعة لتلازمه فترة زمنية محددة حتى يحقق مأربا بارتداء لباسهما ، ومتى يكشف القناع عن وجهه فى تبجح وفحش من القول غير هياب لموقع ألفاظه من أعراض الناس وسماتهم .

وما كان إدراك فرحات لكل هؤلاء القوم عن دراسة فى الأسفار وإنما كان ذلك عن خبرة طويلة وتعامل بين البشر حتى كانت تلك الدراسة العملية تطبيقاً صادقاً لما تحدث عنه رجال علم النفس وبناء المجتمع .

فقال مصنفا من حوله من الناس أنّ فيهم أحياء أموات ، يتحسر عليهم حين يبيعون عزتهم وكرامتهم ويعدهم فى سجلات الموتى ، فالموت أحق بأمثالهم وكذلك من يتهاون فى أعز ما يملك لا حياة له ، وقد ورثهم سلوكهم هذا نوعا من اللامبالاة وعدم التيقن فى الأمور فتصرفوا كما تتصرف السائمة ، ولا هم لهم إلا الإثراء وملء الجيوب وبناء الدور ، والبعد عن كل ما يجلب لهم قدرا من الإنسانية أو الكرامة لو كلفهم ذلك شيئاً (رباعية ٣) .

حولي منَ الناسِ أمواتٌ وما برحوا يمشونَ كالناسِ منْ دارٍ إلى دارِ
أبكي عليهم بأشعاري فتضحكهمْ معَ ما تثيرُ من الاشجانِ أشعاري
قومٌ يبيعونَ للشارينَ عزتهمْ والعرضُ والدينُ والدنيا بدينارِ
لا يفرقونَ إذا أثروا أكلتهمْ تاجٌ منَ العارِ أمْ تاجٌ منَ العارِ

ويقول عن تبلد الشعور عند بعض الناس ، مع أنهم قد حققوا مآرب ومكانة مرموقة في الحياة ، ولكن كانت بضاعتهم التي عرفهم بها الناس بضاعة راكدة ، وقد اضطر الشاعر أن يعاشرهم على ما فيهم حتى يعدل من سلوكهم ويحولهم إلى إنسانيته التي رسمها لهم (رباعية ٤) .

لولا بصيصُ رجاءٍ في النفوسِ لمَا راقتْ لذي أدبٍ في موطنٍ كاسُ
يلقى الألوفَ منَ المستحجرينَ ولا يلقى -ولو جدَّ- فرداً فيهِ إحساسُ
بعضُ النفوسِ نسورٌ كلمَا جنحتْ للجو شدتْ على أعناقها الناسُ
فالعلمُ والحقُّ والإنصافُ اجنحةٌ والجهلُ والبطلُ والإجحافُ أمراسُ

ومن ألوان الناس من يتلون ويعاشر أصدقاءه معاشرة الحرباء ، فاذا فاز بمطلبه قلب لهم ظهر المجن وتحول عن شخصيته الأولى ، وقد أنس الشاعر إلى مثل هذه الشخصية وقدم لهم من المعروف الشيء الكثير ، ولكن هو التلون الذي لازمه وألح عليه أن يركن اليه (رباعية ٦١) .

سرينا في الظلامِ معاً وكنا لفرطِ الخوفِ نأنسُ بالوميضِ
وكنتُ إذا سقطتُ عليكَ أحنو كما يحنو الطبيبُ على المريضِ
فمذْ لاحَ الصباحُ مددتُ ستراً على عينيكَ منْ جهلٍ عريضِ
تحاولُ ظلمةً وأريدُ نوراً فنحن إذاً على طرفيْ نقيضِ

كذلك يصور لنا فرحات صورة أولئك الذين يبخلون بما اعطاهم الله ، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في منافذها الشرعية التي أرشدهم الله اليها ، وكذلك فان هذا الصنف من الناس لا حياة له بدون محبة الآخرين وعطفهم عليه اشفاقا ومودة لقاء ما يبذل لهم من مال ومعروف ، والويل كل الويل لمن يتنكر لقومه ولا يكون دائم العطاء لهم (رباعية ١٩) .

من كان يدخرُ الأموال مختلساً فأنى بلاياهُ مما كان يدخرُ
ومن يعش حاصراً ماء الفرات ولا يسقى العطاش تمتْ موتهُ البقرُ
كمْ من غنىً جبل كلفا لهثتْ عياهُ وجهُ فقير خفَّ يستترُ
ترنو إلى ماله الوراثُ قائلةً لا يؤكل الجوزُ إلَّا حين ينكسرُ

فيالها من حكمة رائقة تلك التي صبها فرحات فى قالب الوعظ إن هذا الذى يبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذم ويتمنى ورثته موته حتى يرتعوا فيما خلف ما لم تنعم به البشرية ، وكان حريا أن يتخذه وجائز له فى حياته حتى انفقه فى وجوهه المشروعة ولم يبخل به ليكوى به .

خامسا : الحث على الالتزام بالشمائل الخلقية :

لقد حرص الشعراء جميعا أن تكون لهم رسالة إنسانية غير العصور فى حث الناس على الالتزام بالشمائل الخلقية الرفيعة التى تعلى من شأنهم وتبقى ذكرهم ، كما اهتدى الكثيرون من رجال التربية بما قدمه لهم هؤلاء الشعراء بما يناسب وأسس التربية الحديثة ، وأدرك فرحات فى مهجره أن من واجبه الإنسانى أن يشدو بهذه الشمائل الخلقية ويبعث فى الناس أفكاره هداية لهم وطريقا مستقيما ، وزين بها رباعياته فى شكل وعظى يدرك معناه كل إنسان ، فلا تحتاج كلماته إلى إعمال للفكر أو قدح لزناد الفهم ، فشعر فرحات من السهل المطلوب والبلاغى المرغوب .

ويدعو فرحات إلى تهذيب السلوك الإنسانى وعدم الخبث فى صداقة الناس ، والجرأة فى الحق ، وعدم اللين فى مواجهة الأشرار حتى لا يرمى الإنسان بالجبن والضعف ، وكل موعظة مما حملته هذه الرباعية يفيض الكلام فيها ونضرب بها الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ولكن فرحات جمعها فى ثوب قشيب تسر النفس رؤيته ، ويرتاح الفكر إلى كل ما فيه ، حتى يمكن أن يدرج فى أساليب التربية الحديثة للناشئة حيث يقول (رباعية ٢٢) .

هذبْ طباعكَ فالإنسانُ يعورهُ حتىَّ يلقبَ بالإنسانِ تهذيبُ
ولا تداجِ امرءاً طابتْ سريرتهُ ففى المداجاةِ للأحرارِ تعذيبُ

وكذبْ القائلَ الغادي بحضرته فخيرُ ما يردعُ الكذاب تكذيبُ
ولا تكن ليناً في جيرةٍ شرسٌ فليسَ يسلم كبشٌ حارةٌ ذيبُ

وليس الناس في بقاع كثيرة من الدنيا يدركون معنى البيت الأخير حتى يقدروا لأنفسهم أقدارها ، فالناس صنفان : ضعيف لا حول له ولا قوة ، ويا طش فيه الغدر أكوى لبنى الإنسان من غير جنسه ، والويل كل الويل أن يعايش مسالمٌ شرسا ، وليكن بين الضعفاء اتحاد حتى يرهبوا ذلك الباطش الغادر .

ويبرز فرحات في رؤية نفسية كيف وقف يدافع عن المظلومين ، وقد سخر نظمه فضحاً لهم وتنديداً بأفعالهم ، وتقدم يعطي للإنسانية خلاصة دفاعه عنهم وإن كان لم يوفق في هذا الدفاع وتلك الحرب الإنسانية الضروس ضد الظلم والظالمين ، فيوضح للناس أن تمسكهم بالحق ونداله دوما وعدم التفريط منه يمكن أن يعلم الجميع كيف لا يرضى الإنسان بالمفاسد ولا يسكت عنها ويندد بها وما على الإنسان إلا أن يكون كالسيف قطعاً في قول الحق والالتزام به ، والتمسك خفه وإن اتعبه حمل ذلك الحق والنداء به دوما ، فلا شك أنه بالغ ما به محقق ما تصبو إليه نفسه (رباعية ٢٠) حيث قال :

حاربْ لتضمدَّ جيوشَ الظلمُ منقسماً منها برأس يراعٍ يقذفُ الحمما
ثمَّ انسحبْ من الميدانِ مرتعداً والظلمُ يجرفُ الأفرادَ والأمما
كنْ كالحمامِ وقلْ ما أنتَ معتقدٌ للمستبد ولا ترهبْ إذا احتدما
إنَّ الجيادَ تلوكُ اللجمَ مزبدةً غيظاً ولكنها لا تبلعُ اللجما

وعن التبصر في الأمور بمقاييس الناب المتفحص في كل خطوة يخطوها ، وعن التيقن في كل احوال الأخبار وعدم الركون إلى الشك فليس هناك من الأمور ما ينبغي للإنسان أن يقول فيه كلمة شك أو ظن ، وإنما على الانسان دوما أن يكون على يقين مما يقول أو يخطط أو يفعل ، وبعد النظر في كل شيء أمر مرغوب حتى يبرىء الإنسان ذاته من محيط الشك إلى بؤرة اليقين ، وهذا ما قاله فرحات في (رباعية ٤٦) :

أطلقْ إلى الأمر كفَّ الجهد لا ندى إبداء رأيك فيه بأمنْ الخطلا
واحفظْ لنفسك حقَّ الحقِّ عن غير باقى إليك ولا تلقاهُ مختملا
مَنْ كان فى حمل عالٍ وقال أرى فى لجة البحر حوتا يشبه الجملا
فلا تصدقهُ تصديق امرئ، عمى ولا تكذبهُ ما لمْ تصعد الجبلا

كما يدعو الإنسان ألا يضيق صدره بأمور الحياة ، وأن عليه أن يكيف نفسه لكل ما خلقه الله فى الكون إذ ليس فى قدرة الإنسان أن يكيف ما خلق الله لإرادته هو ، والا يتضجر أو يتبرم بما يراه فى الحياة ، فالدنيا للجميع وليست لحساب فرد يسيرها كيف أراد أو يجعلها تنهج نهجاً إبداعياً يطلبه .

وهذه الرباعية تفيض فلسفة إنسانية استطاع فرحات أن ينسج على منوالها هذا النظم الرائق الذى يهب الإنسان صبرا وقوة تحمل على ما هو موجود بالفعل فى الحياة ، وهذه الفلسفة التى يهتف بها فرحات جاءته بعد أن عركته الحياة وصعب عليه قهرها فلم يجد بدا من الخضوع لقسوتها والانصياع لشدتها ، وهو فى هذا المجال صابرٌ مصبِّر لغيره ، حتى يتقبل الكل على حياتهم غير متبرمين أو ضائقى الصدور (رباعية ٤٨) .

يامنْ يخافُ ضياءَ الشمس مستتراً خلف الدياجر لاح الصبحُ فابتعد
أوقفْ فكلُّ مقرٍّ سوف يغمرهُ موجُ الضياء بهذا اليوم أو بغد
قلْ ما أردتَ وذمَّ الحادثاتِ ولمْ إن الطبيعة لا تصغى إلى أحد
والشمسُ تبزغُ فى آنِ البزوغ ولوْ جرتْ ويلاً علىّ الخفاش والرمد

ويدخل الياس فرحات مدخلا جديدا فى الشمائل الخلقية حيث يتوجه باللوم للنساء وخاصة من تفتخر منهن وتتعالى على من سواها من النسوة ويبين لهن ان هذا الفخر بمتاع الدنيا من ثياب وزينة وحلى عرض زائل ، وكل ما تمتلكه هذه المفتخرة ربما آل اليها من جراء النهب والسلب الذى اعتادته فى حياتها إذ هؤلاء النسوة سلطان على التجار ، وان المرأة التى تفتخر بغير حميد الصفات وطيب الشمائل لاخلاق لها ، ويعلن ذلك تأديبا لهن ونصحاً لسلوكهن الشائن الذى ينم عن نفسية كاذبة ينبغى البعد عنها (رباعية ٦٥) .

أسيدقي الفخور على اللواتي ... يرين الصخر دون الفضل عارا
سمعتك تفخرين فضاق صدري ... وكاد القلبُ ينفجرُ انفجارا
على أني أقولُ كلام حرٍ ... يمرقُ عنْ حقيقتكِ السترا
حريرك خلسةً وحلالك سبٌّ ... وإنْ كذبتني فسلي التجارا

ومن خير ما هتف به فرحات هذه الطائفة من الشمائل الخلقية **طلب الدفاع عن الحق**، الإستماته فيه والدعوة إليه، فان الانسان الذى يهان الحق أمامه أو يفرط فيه لا خير منه يرجى ولا أمل فى حياته، وربما هتف فرحات بهذا حين أدرك ضياع حقوق الناس فأعلى أن الحق يستميت الإنسان فى الدفاع عنه ويستشهد الأبطال فى إظهاره وإعلاء شأنه (رباعية ١٦٣) .

دافعْ عن الحقّ المهان ولوْ ... تكاثرتْ الخصومُ
خيرٌ مماتكَ في الدفاعِ من ... انتصارك في الهجوم
الحقُّ نجمٌ أوشكتْ ... تخفي أشعته الغيومُ
فإذا إختفت لا الشمسُ تجـ ... ـدى العالمين ولا النجومُ

ويدعو فرحات إلى كظم الغيظ كلون من ألوان الأخلاق الحميدة، وما ذلك ألا تمشيا مع القيم السليمة الموصلة الانسان إلى بر الأمان متى كان قادرا على عقاب من باغره الإيذاء، وقادرا على كظم غيظه كنصرة إنسانية على غيره من المتطاولين، وكذلك حث فى تلك الرباعية على الا ينسى الانسان الاساءة عن عمد حتى لا يرميه الاخرون بالضعف والاستكانة (رباعية ٧٠) .

تعاشَ الغيظ إنْ لاقيتَ شراً ... بدارٍ كلهـا شرٌّ بدارِ
فانَّ المرءَ في دنياهُ وسمٌ ... يحيطُ منَ الشرورِ به إطارُ
ولا تنسَى المسيء إليكَ عمداً ... وليسَ لهُ بذاكَ عليكَ ثارُ
فواحدةٌ بواحدةٍ لعمري ... بخيرٍ أو بشرٍّ يستطارُ

ومن الشمائل الخلقية ان **يرفض الانسان الذل، ولا يقبل الضيم**، وإن من ركن إلى الضعف والاستذلال يعدى الاخرين ويرميهم بما ليس فيهم، بينما قوى النفوس قوى الإرادة شديد صراحة الرأى تعلو كلمته ويرتفع شأنه، وإذا

استشرى في دم الذل في أمة من الأمم قضى عليها وسهل على الآخرين النيل منها وتحطيم معنويات شعبها .

وقد ساق فرحات تلك الرباعية للدلالة على بعد نظره في أن بعض أبناء الأمة العربية قد هدهم الذل وتحولت أحوالهم ، ولو اجتمعت كلمتهم لقويت شوكتهم ورفضوا الذل وهدوه ، أي غلبوا الاستعمار ومن أراد بهم السوء أو هزيمتهم (رباعية ١٠٢) .

أرى في شعبنا بعضاً ذليلاً وأخشى أنْ يصيرَ البعضُ كلّا
فداءُ الذلِ في الأرواحِ مثلٌ كداءِ السلِّ في الأجسامِ حلّا
وما بعدي العزيزُ العبدَ عزاً كما بعدي الذليلُ الحرَّ ذلّا
فإنَّ الخلَّ ليسَ يصيرَ خمراً ولكنْ قد تصيرِ الخمرُ خلّا

وليس الذل من الاستعمار فحسب بل كان لبعد نظر فرحات أثر في أن الأغنياء يستذلون الفقراء والمحتاجين بأموالهم ، ويتملكون رقابهم بما يقدمونه لهم ويمنون عليهم حتى يؤذون مشاعرهم ، فما أحق الإنسان بهجر طلب المال من هذه الطبقة المستغلة المستذلة لغيرها بما وهبها الله من مال وعرض زائل وأولى بالإنسانية أن تحافظ على كيانها بعيدة عن استرقاق الأغنياء الفقراء بأموالهم وهذا ما عناه فرحات بقوله (رباعية ١٢٢) .

مالي لمالِ الأغنياءِ ووفرِهِ ميلٌ فما للاغنياءِ ومالي
رغبٌ سواءَ بهمْ فإنَّ نضارهمْ في مسمعيَّ يصلُّ كالأغلال
أخشى مصادقةَ الغنى لأنني أخشى عليَّ عواملَ الإذلال
فإذا أنا استقرضتُ قرشاً واحداً منْ مالهِ يستوهبُ استقلالي

وعن أخلاق التجار وجشع بعضهم وتعمدهم الكذب والمغالاة في الربح إلى حد الاغتصاب والنهب من الناس يحذرنا فرحات بالا يتمنى الانسان أن يكون مثلهم يحرص على تكوين ثروة وكذا أموال طائلة ، ولعل فرحات قد أدرك حين رأى أن الكثيرين من الشعراء الذين هاجروا هجروا الشعر واغرطوا في سبل التجارة واعتبرهم قد ضلوا السبيل لما شاع عن التجار من فساد أخلاق

وغش ونفاق حتى يروجوا بضاعتهم وما هم بتجار إلا أنفسهم وما يشعرون (رباعية ٢١) .

يا شاعرَ العرب أحذرْ أنْ يقالَ غداً كحلُ التجارةِ أعمى شاعرِ العربِ
سر في سبيلِ العلى الشهباءِ منفرداً وليذهبُ الناسُ افواجاً الى الذهبِ
إن التجارةَ للأخلاقِ مقبرةٌ أما النتائجُ فالأكفانُ للادبِ
إنْ ضاقَ عيشك كنْ مسّاحَ أحذيةٍ لا تاجراً يقتني بالغشِّ والكذبِ

إن في نظرة فرحات إلى هذه الأخلاق في بعض التجار إنما تؤكد حرص الشاعر على تثبيت القيم الإنسانية والاجتماعية في صفوف الناس جميعا ، ويؤكد هذا المعنى في صراع التجار وارتكابهم الآثام في سبيل الإثراء ، ويأبى فعلهم هذا كل من طابت سريرته ونقت نفسه ، ويوضح ذلك في رباعية ضرب فيها مثلا بنفسه حيث قال (رباعية ٨٠) .

فلاسفةُ الأعاريبِ منْ قرونٍ قد احتقروا التجارَ وقد أصابوا
فما سوقُ التجارةِ غيرُ غابٍ تعاشُ في جوانبها الذئابُ
رميتُ بها وما في الكفِّ ظفرٌ أكرّ به ولا في الفكِّ نابُ
فلمْ يسلمْ منَ التمزيقِ جلدي ولمْ تسلم على جلدي الثيابُ

وقد أدرك فرحات قيمة الصدق في بناء القيم الانسانية والاجتماعية فحث عليه وحذر من الكذابين ، فإن قولهم يفسد الحياة ويشوهها ويصيب أهلها بخيبة الأمل ، فما أجدرنا أن نستمع إلى حديثه عن الأفاكين الذين وطنوا أنفسهم على الكذب قولا وفعلا وأثر ذلك في حياتهم وحياة الآخرين ، وما أحسن أن يبتعد الإنسان عن مجال وجود هؤلاء النفر لما يثيرونه من سموم فتاكة في جسد الأمة ، وما يزرعونه من بذور الشقاق والتهلكة بين صفوف الناس ، وتلك أسس تربوية ينبغي على كل إنسان أن يتحلى بها وأن يتمثلها قولا وفعلا وإحباطاً لفكر الكذابين وهدماً لما يقيمونه من صروح آمال الدمار والفناء وهذا ما عناه فرحات في « رباعية ٣٧ » وما ورثهم ذلك الإفك من الحقد والفتن والحسد الدائم لبني الانسان .

إني بليت بأفاكين ما نطقوا إلّا تعميتُ فقدَ السمع والبصر
عاشوا على دهمٍ حتىٰ إذا انتشلوا منْ حفرة الذل حلوا هوة البطر
نامو! وأحفادهمْ تجتازُ منْ سهرٍ مضنٍ إلى سهرٍ يفضي إلى سهر
إنْ كنت تطلبُ نفعاً منْ مودتهمْ فالنفعُ أجمعُ أنْ تنجو من الضرر

وهناك صورة أخرى من الكذب والبهتان الذى لا يسمعه الإنسان وإنما يراه ذلكم الذى يفعله بعض الناس حين يموت عزيز عليهم يمدحونه كذبا وبهتانا على صفحات الصحف ، وينسبون إليه كل صفات الخير والمعروف ، ويصفونه بما لن يكن فيه نفاقاً وكذباً وذلك ما نهى عنه فرحات فى وعظ تربوى وصورة اجتماعية منفردة حتى لا يقدم عليها من صفت نفوسهم ورفضت شمائلهم ، ولعل الشاعر بذلك يهدف إلى تنقية المجتمع بأسره من تلك الآفات المكلفة ، وهذه البدعة المهلكة للأموال المهيجة لكوامن النفوس (رباعية ١٥٤) .

اسلافنا كانوا إذا مات امرؤ يستأجرون لندبه نسوانا
يسنّ للميت العزيز فضيلةً صدقاً وألفُ فضيلةٍ بهتانا
أما الذين عرفتهمْ في عصرنا ممنْ يريدون العلوَّ مكانا
يستأجرون ليمدحوا أمواتهمْ صحفاً أحطُّ من النوادب شانا

أرأيت كيف اتبرى الشاعر للقضاء على الكذابين والبعد عن المنافقين يريد بذلك أن يبنى مجتمعا مثاليا خاليا من كل ما يصيب كيانه بالهدم ، الخلقى أو يهدده بالدمار متى دبست القيم وتناساها الناس ، ولعله بذلك قد أدى دوره كمصلح اجتماعى فى هذا الجانب .

لقد أدرك فرحات دور المرأة الكريمة الشمائل فى بناء مجتمعها فنادى أن تكون النساء على جانب كبير من عفة النفس ، والتمسك بكل القيم الإنسانية وخاصة فى مظهرها فدعاها إلى عدم التبرج وعاب عليها حين تكشف عن محرماتها للآخرين ، وأظهر مفاسد ذلك فى كل أبناء الأمة ، فان هذه الانسانة التى تتبرج تضر نفسها وتلحق الضرر الأشد بغيرها من ضعاف النفوس ، حين تستهوى بفتنتها الآخرين ، وكأنى بالشاعر يسير فى تلك الدعوة وفق منهج

إسلامي حيث وجد هذا العمل الشائن فأنكره بلسانه وهتف به في مجتمعه وكان التبرج سمته ، فحافظ على الأنثى ورعى كيانها حتى تظل عفتها في مظهرها وجوهرها على السواء .

وقد ضرب فرحات على وتر العفة وتهذيب النفوس بقضية أن من تتبرج لا تألف قرينها وإنما أن تكون شيئاً من أعين الجميع فهي شرهة أفاقة نبت سمومها لتوقع الآخرين في شراكها ، وخير للانسانة المهذبة خلقا الكريمة منبتاً أن تهجر هذا التبرج وتبتعد عن الزينة الرائفة ، وتقنع بحسنها الرباني وجمالها الذي صنعها الله عليه فمن أحسن من الله صنعا .

وتلك والحق يقال دعوة صريحة إلى تنقية ما نعانيه في أيامنا هذه حتى تعود للأنثى كرامتها (رباعية ١١٩) .

تتبرجُ الخود الوفاخ لتلتهي عنْ ليل سوءتها بصبحْ جبينها
ولو انها حسنتْ خليقتها انتهتْ عنْ حسنْ خلقتها وعنْ تحسينها
إنْ التبرجَ للقرينة أسطرٌ تفسيرها طمعٌ بغير قرينها
وإذا الصبية لم يلونها الحيا عجزتْ يدُ الرسامِ عنْ تلوينها

وفي نفس الموقف يبدع فرحات في رباعية أخرى (١٢٦) يبين فيها أن تكون المرأة حسنة حتى في وضع الخمار ، فلا تدعه يظهر من محاسنها أكثر مما خفي ، فان جمال الأنثى متى كان خافيا كان أدعى للاحترام وأجل لشمائلها الخلقية :

تبرقعُ المتبرجات سوافراً ببراقع منْ نسجهن كثاف
يصبغن هاتيك الخدودِ تبرجاً فالصبغ باد والخدودُ خوالف
ذاتُ النقاب ترى ملاحتها كما هيَ منْ وراء نقابها الشفاف
أما التي تخذُ التبرج برقعاً فهي التي تخفي عن المشتاق

وما أحسن تلك النقطة الفكرية في محيط القيم الإجتماعية والإنسانية أن يكون الإنسان مثالا طيبا يحتذى كما يطلب من الفتاة أن تكون صورة طيبة

لزوجها الذى اختارها عن يقين وإيمان لا عن تبرج وبهرج خداع (رباعية ١٢٧) .

لمستُ الفتاة على نيرجها فما استنتُ إلا سنةً خرقاء
هى ملك كالظل الرفيق فأتبع إنْ تلكُ اعوجاً طبعاً تكنْ عوجاء
ماذنبها وهى التى تجرى الذى ترضى ميولكَ فيه والأهواء
أظهرتَ ميلاً للجمال ولمْ تكنْ بجميلةٍ فتجملتْ إرضاء

ومن القيم الاجتماعية التى طرقها فرحات فى قصة التبرج الذى يخدع ويجذب الشاب للأقدام على الزواج أن يتأنى الإنسان ولا تسبقه عاطفته نحو تزويج بنيه إلا عن وعى وتجربة رائدة ، فإن خداع الرؤية أمر لا يدوم وسرعان ما تنكشف الحقائق ويعلم الإنسان أن ما تعرض له سراب زائل لا حقيقة وراءه ، وتلك دعوة أكيدة لكل من يقترب من شباك خداع الرؤية أو شرك التبرج وخير للإنسان من أن تحزن ساعة للرفض من تدم الحياة للإقدام الأهوج (رباعية ١٢٤) .

خدعتْ بجاذبها الفتى وبحسنها فقدا ضحية حسنها والجاذبُ
ورحمتهُ فنصيحتى فى تزويجه ثقةً بأنك قائمٌ فى واجب
لا تحزنن لعاشقٍ متحذقٍ متعلقٍ بوعود لحظ كاذب
فتندمُ تلقاه منْ متزوجٍ أدعى لحزنك منْ تحرق عازب

سادساً : بعض طباع البشر :

ساق فرحات لوحات فنية لطباع بعض الناس فى مواقف انسانية متعددة ، ومن أهمها :

١ الحذر من المحتالين : لقد تفهم الياس فرحات من طول معاشرته للبشر أن فيهم الخير ومنهم الشرير ، فكما حث على التقرب من الخيرين والسير فى ركابهم حذر من القرب من المحتالين ونصح بالبعد عنهم . فكم فئة ضالة مضللة تشكل خطر دائما للمجتمع ونفث فى عضد وحدة الأمة ، والمحتال قد

امتلأ صدره حقدا وغيظا ورأى أن يبث سمومه فى مجالات متعددة وأن يكون له أثر من فريسة فى كل يوم يحتال بما أوتى من دهاء ومكر ليوقعها فى شركه ، وسرعان ما يستجيب ضعاف النفوس لهم ويخضعون لهم خضوعا أبديا يصعب الفكاك منه .

ومن صور المحتالين ما يفعله جماعة من الدجالين يستهوون بأفعالهم بسطاء القوم ويلعبون بأفئدتهم ، وذلك ما صوره فرحات فى قوله (رباعية ١٢)

فتمّ مخاطبة الأرواحُ مثبتةً هيهات ليس الهذر إثباتُ
كفوا عن العالم المجهول ألسنةً كأنهنّ إذا أطلقن حياتُ
ولا تضيعوا رفات الراقدين فقدْ تودى براحتهم هذى الخرافاتُ
أتكذبون عليهم فى حياتهم وتذنبون إليهم بعد أن ماتوا

وليست تلك الصورة السابقة مما عرضه فرحات بغائبة عن لب الأذكياء مما تفعله من تحطيم القيم الإجتماعية فى النفوس ، ومثلها ما أفاض فيه بتوضيح موقف محتال من الناس يقدم إليك معروفا بسيطا ليحصل منك على ولاء تام ، وبهذا يخدع الناس ويرتمى الجميع فى أحضان عطائه حتى إذا تمكن منهم ظهرت نواياه التى اخفاها من قبل ليتال منهم شر منال . وهذا الصنف يجده الإنسان دوما فى مجتمع تكون أفراده ، خلت ضمائر بعضهم من صدق النصح وبدل الخير توجه الخير . وهذا ما عناه بقوله (رباعية ٢٩) .

لا يخدعنكَ محتاجٌ إليك إذا فى ما يسركَ من أمواله بذلا
إن ابنَ آدم لا يعطيكَ بعجتهُ إلا ليأخذ منكَ الثور والجملا
جهلُ البرىء طباعُ المجرمين وما شبوا عليه يجلبُ الأجلا
لو يعرف الكبشُ أن القائمين على تسمينه يضمرون الشر ما أكلا

ان هذا التصوير الذى صوره فرحات فى تلك الرباعية ليدل دلالة قوية على بعد نظره بفعل المحتالين فى المجتمع ، وانهم يسعون لتجريده من القيم التى تعلى شأنه مما يرسخونه فى نفوس الآخرين من حيل مكتملة النسج شديدة

الثأر في النفوس تؤدي بأصحابها إلى الهاوية .

وهناك صورة انسانية يظهرها فرحات في ابداع سواري بان شر الأصدقاء من يحتال على صاحبه لينال منه ما يريد ، فان كان به حاجة إلى ما عند صاحبه تظاهر هذا الذي أخذ منه كل شيء بأنه لا يملك شيئا ، وتلك افة الأصدقاء وما ندخل بعضهم في عداد المحتالين ، والصديق من يصدق صاحبه في كل شيء ، ويحافظ على قيم المجتمع والانسانية كائنة بينه وبين اصدقائه دوما ولا تغيره ثوب الدهر ، اما من يأخذ ولا يعطي فهذا من أشر خلق الله خلقاً (رباعية ٩٤) .

وقائلة أراك حليمَ همٍّ وصحبكَ يرغبون بأن تسراً
فقلتُ لها إذا وقيتُ صحبي ورغبتهم فقدْ وقيتُ شرّا
دعيني من تملقهم فإني سئمتُ من كلّ أهلِ الأرضِ أدرى
لو استوهبتهم زراً لثوبي لمتُّ ولم أجدِ للثوب زراً

ب - **التستر وراء طباع خفية** : يتستر الانسان في حياته في المواقف العديدة بصورة متباينة ومن تلك ما يخفيه الانسان من الخبث والغدر ويتظاهر بالطيبة وحسن النية وصدق الطوية : فهذا فرحات يصور الانسان في تلونه وغدره بانه احط منزلة من وحوش البراري وحيتان البحار ، وما صور فرحات ذلك الا تنفيرا للناس وحثا لهم على السيرة الحميدة والبعد عن ان يكون للانسان ضحايا فصائد اليوم ضحية الغدر ، وتلك قيم متقابلة بين العباد ، (رباعية ٢٤) :

المرءُ شرٌ يباع البرّ قاطبةً خبثاً وشرُّ ثنايين البحارِ معاً
قولوا عن الذئبِ ما شئتمْ فسامعكم بمثل غدرٍ ذئابِ الناسِ ما سمعاً
الذئبُ يتركُ شيئاً من فريسته للجائعين من الذؤبانِ إن شبعا
والمرءُ وهو يداوي البطنَ من بشمٍ يسعى ليسلب طاوي البطنِ ما جمعا

وعن كون الانسان ابن بيئته يترجم عما فيها في كل سلوكه يحدثنا فرحات حديثا اجتماعيا صريحا عن ان الانسان يتصرف في حياته وفق نواميس

متوارثة فى مجتمعه ، وعلى الانسان ان يقدر تصرف كل فرد وفق ما عرف من قومه ونعلم منهم من قيم ، وهذا ما يقوله علماء الاجتماع ان الانسان وليد بيئته وسلوكه نهج منها (رباعية ٢٧) .

ما المرءُ فى الكونِ إلا ابنُ بيئتِه ... فانظرْ لمختلفِ البيئاتِ واعتبرِ
إنى درستُ طباعَ الناسِ مختبرا ... مافي النفوسِ وليسَ الخبرُ كالخبرَ
لا يطلبُ الحرُّ فهماً فى الجميعولا ... يغنى من البدوِ ما يبغي من الحضرِ
إنْ كان ينطحني البقارُ لا عجبٌ ... فالنطحُ مكتسبٌ من عشرةِ البقرِ

ومن هذه الصور التى يبرزها اليأس فرحات ما نراه فى قوله حين يحذر من جفاء الناس من ان الاباء يسعون دوما إلى تلقين الابناء دروساً فى الحنان وحميد الصفات ، ولكن يغلب التطبع بالجفاء وقسوة القلب أحيانا فلا ينبغى ان يسلم الانسان بما يراه فيهم من قيم وانما عليه ان يحذر فالغدر فى الطبع وليس سمة بارزة فى وجوه الناس (رباعية ٧٨) .

يدينُ والدٌ ولداً حنانا ... ولكن لا على أملِ الوفاءِ
فإن الناسَ ليسَ لهم وفاءٌ ... وقد جمعوا الكثيرَ من الجفاءِ
همُ الغيلانُ فى هزلٍ وجدٍّ ... وفى ضيقِ المعيشةِ والرخاءِ
فلا يغررْكَ إنكَ لستَ تلقى ... على أنيابهمْ أثرَ الدماءِ

وهناك نوع من الناس يضيقون ذرعا بالدهر ويتحدثون دوما ان سبب بلواهم فى دهرهم وان ما يصيبهم من فعل الزمن ، وهؤلاء تبرموا بالحياة وضاقوا بها ، وما أدركوا أن ما أصابهم لم يكن إلا من عمل أيديهم ، وضرب بذلك مثلا بمن يدعى التدين والدين منه برىء ، وان الناس يخشى بعضها بعضا لما اتصفوا به من صفات الغدر والقهر بعضهم لبعض ، ولعل فرحات فى ذلك يندب ما حدث فى المجتمع البشرى ويبصر الناس بما ينبغى عليهم اتخاذه منهاجا وسلوكا لتحقيقا للقيم الاجتماعية وبناء للقواعد الانسانية على أساس من الصدق والوفاء والبعد عما لا ينبغى ان يتصف به الانسان (رباعية ١٦) .

نشكو عتى الدهر لا أساس لها فالدهر لم يرتكب إثماً ولم يجر
لا يقفل البشرُ الأبواب إن رقدوا خوفاً من الذئب بل خوفاً من البشرَ

يالابسَ الدين عقداً يستعيذُ به قد صار عقدك أصداقا بلا درر
مات الوفاءُ ومات الفضلُ واختلجتْ في صدر عرض الورَى أنفاسُ محتضر

ويبرهن فرحات ان الاحتكاك البشري يولد في الانسان صفات جديدة يجلو معدته ، ويظهر جوهره حين يسلك في تعامله معهم ما ينبيء عن شخصيته ، وان كثيراً من الناس تدور بهم الدنيا ولا يدورون معها تعلما لما حوته من البشر واخذ الحميد منه ونبذ السيء ، فعلى الانسان ان يأخذ من من سلوك الناس صوراً يعتز بها وان يكون دائما في تلاحم معهم بناء لقيمه ، ولا نجد ذلك بين سطور الكتب فسجل المعرفة الحياة وكشفها الاحتكاك في التعامل البشري (رباعية ٤٣) .

شرقٌ وغربٌ فقد يغنى أخو سفرٍ عن كل ما تجمع الأسفارُ من حكمِ
والمرءُ لا يرتقي مهما تلا كتباً إلا إذا احتكَّ بالأفرادِ والأممِ
كم في البريّة من حيٍّ تدورُ به الـ غبراءُ وهو على الغبراءِ كالصنمَ
نورُ الوجودِ على عينيهُ منتشرٌ ونفسهُ لم تزلْ في ظلمة العدمِ

وهناك قضية اجتماعية هامة تناولها فرحات في بناء المجتمع على قيم انسانية سليمة وهي خداع بعض الناس بما يرتديه الاخرون ، خاصة ما يخدع به الشباب حين يقبلون على اختيار شريكة الحياة ، فيجرون وراء فاخر الثياب دون التمعن فيما تحويه من انسانة تليق به سلوكا ، وتهنأ معه حياة ، والكيس من تبصر في اموره ولم يخدع بما يبهره من مظاهر خداعه (رباعية ٥٩) .

نظرتُ إلى النساءِ تريدُ زوجا تكونُ من الفواضلِ والحسانِ
فما ميزتُ طهرا من فسادٍ ولا حسناً أكيدا من دهانِ
ففيّ صبغ الوجوهِ نرى سباقاً تقوم به العجائزُ والغواني
وفي الأزياءِ وهي كما تراها تشاركتِ الحرائرُ والزواني

جـ - البعد عن النفاق ، قضية النفاق فى القول أو السلوك قضية شائكة شغلت الناس والمصلحين دوما ، وضاقوا بها بحثا إلا حل لها فلم يهتدوا الا إلى الوضوح سبيلا وصدق القول منهاجا ، وعدم الضجر والضيق مسلوكا ، فما احسن ان يكون الانسان واضحا فى كل تصرفاته ، ويصدق لسانه ما استكن فى صدره وبعد ذلك عن النفاق كما قال فرحات (رباعية ٧٤) .

إذا ضاقَ المكانُ على ابن أنثى يصيح مولولاً ضاق الزمانُ
وكم صدق الزمانُ بنيه قولاً وسالمهم فعادوه وخانوا
جنانُ المرءِ تخفى الشرّ عمداً وتبدى العينُ ما تخفى الجنانُ
وبينَ الفكرِ والقولِ ارتباطٌ فإن عثرَ النهى عرجَ اللسانُ

وفى نفس المعنى قال فرحات رباعية اخرى (٨٦) :

تنافرَ أصغراكَ وربِّ رأسٍ تغفرُّ منَ تنافر أصغريه
لسانكُ مظهرٍ لأخيكَ حباً وقلبكُ مضمرٌ حقداً عليه

نأى الإخلاصُ عنك فليسَ يدنوُ إليكَ ولستُ مقترباً إليه
ولستَ بخائفٍ فتكاتِ دهرٍ لديك من الخيانةِ ما لديهْ

ويصور لنا كيف يحتال المنافق على ضعاف النفوس بأساليبه حتى يجذبهم إليه ، وسرعان ما يكتشفون خبثه ومواد سريرته وضراوة فعله فى المجتمع تحطيما للقيم الانسانية (رباعية ٨٩) :

تموهَ كل مبتذلٍ حقيرٍ فتملأ منه فارغة الرءوس
وتجلسُ لاختلاقِ أحط قولٍ فتغرى الواقفينَ على الجلوس
فأنتَ أضرُّ من حشرٍ خبيثٍ تنفس بين صافيةِ الكؤوس
وأنقع من حديثكِ سم أفعىً يميت ولا يؤثر فى النفوس

ويتطرق فرحات إلى نفاق المدح والقول كما تعرض لنفاق المظهر وما يخفى وراءه ، ويدعو الانسانية إلى ان يكون المخبر كالجوهر قولا وفعلا ، ويفضح اولئك الذين يقولون مالا يؤمنون به نفاقا وتسترا وراء طلاقة اللسان وحلو البيان (رباعية ٩٣) .

يجيل البعض لحظا عندما يؤثر في عقول الجاهلينا
فهذا فاضل حرٌ وهذا كريمٌ محسن يعطي الملينا
وعندي أن هذا المدح كذب يوارى تحت بهرجة اليقينا
فأني بغتني حرٌ كريمٌ وأني صار يلقى معوزينا

ويعلن براءته في اختيار الناس وصدق فراسته فيما يخفون من سمات خلقية ، ويفضح امرهم بأنه استطاع ان يكشف عنهم ما يستترون به عيوبهم الاخلاقية ويظهر حقيقتهم عاريه امام العيان حفاظا على كيان المجتمع وتنقية من شرورهم ، وحثا على تجنبهم مهما كان الأمر ، وفي ذلك قول فرحات (رباعيات ١٥٦) .

انظر إلى هذا اللئيم فإنني أدرى به من أمهِ الحرباء
ما شيتهُ يوماً فدستُ خياله عرضاً فأثرَّ لؤمهُ بخبائي
متقلب الأطوار الأفكار والأقـ ـوال والأفعال والآراء .
عبدٌ مع العبدان حرٌ بيننا كالماء يأخذُ لونَ كلِّ إناء

سابعاً : بين العلم والمال :

لقد أدرك فرحات ان المال والعلم سلاحان في بناء البشرية ، وان من ملكهما أو كلاهما صار في مأمن من عوادي الدهر وفضل ملكية العلم عن خزائن الأرض ادراكا طيبا ان العلم يجلب المال متى عقل الانسان تصريف أموره وادرك قيمة علمه في بناء المجتمع . وبسطاء الناس من يظنون قيمة المال تعلو على قيمة العلم . (رباعية ٥٢) .

مالي أرى الناس عقلاً فإن جمعوا شيئاً من المال صاروا كالمجانين
والعلمُ والحلمُ سلطانان عندهم أما النضارُ فسلطانُ السلاطين
يصبى الخواطر زهوُ الأغنياء ولا تصبى الخواطرُ أمجادُ الأساطين
كل امرىء يتمنى مال « وكفلر » وقلَّ منْ يتمنى علم « داروين »

فما أبدع تلك المقارنة من ان الجهلاء يتسورون مال زعماء الرأسمالية بينما القلة من الناس من يتمنى أن يكون له جزء من علم داروين صاحب نظرية النشوء والتطور التي تعبر عن فهم علمية دقيقة وبحث لاعمال العقل .

ويؤكد فرحات قيمة العلم في دعوته للناشئين حثا لهم ان يتعلموا العلوم النافعة ليدركوا قيمتهم في الحياة ، ويصعدوا إلى مراتب الرفعة والسمو الانساني مما ارتفعت امة بجهلائها ، ولكن على فكر العلماء ورجاحة عقولهم تقوم بناء الحضارات ، وترقى الامم وتتسابق بأبنائها العلماء في شتى مجالات الحياة مما لا غنى عنه ، فيدعو إلى ذلك قائلا (رباعية ٦٦) .

أراكَ فتىً تلوحُ له الأمانى فيحجبها من الجهلِ الغبارُ
تعلمُ ما استطعتَ فكلُ علمٍ به نفعٌ وليس به خسارُ
يكلُّ كلُّ ذى علمٍ شعاعٌ إذا ما كلَّ الأبطالُ غارُ
وجهلك حين يبدو العلمُ يغدو كظلك حينَ ينتصفُ النهارُ

وما أرفع ما يرفع تعلم الادب صاحبه إلى عليا الدرجات ، وان ظن بعض صغار النفوس ان الرفعة تكون للانسان بقدر ما يحصل عليه من مال ، وتلك قيمة رفيعة في حث الانسانية على التزود من العلم يزاد الادب الرفيع ، فهؤلاء الذين صفت نفوسهم وخلد ذكرهم ، وهذا ما أشار إليه فرحات بقوله (رباعية ٦٧) .

لنا لبُّ اللبابِ من المعالى وللمتظاهرين بها القشورُ
نحب الصاعدينَ إلى ذراها وننصرهم إذا عزَّ النصيرُ
ونقصي الخائمينَ على الدنايا كما حامتْ على الجيفِ النسورُ
بنو نفوسنا أدبٌ يسيرٌ وليس ببزها ذهبٌ كثيرُ

وبعـــد :

فان هذه الرباعيات التي تناول فيها الياس فرحات المقاييس والقيم الاجتماعية في رحاب الانسانية لتظهر بجلاء عن نفس شفافة للشاعر ، وفكر متوقد وروح وثابة لاصلاح المجتمع ، فلقد أدرك فرحات ان من أهم مهام الشاعر ورسالته في الحياة تقييم من فيها حتى تستقيم لهم الحياة ويسعد الجميع بما ينالون من احترام الاخرين وتقدير انسانيتهم .

وان الواضح من استعراض الفكر الانساني خلال تلك الرباعيات ليبين عن اصالة ثقافة الشاعر انه استقاها من جامعة الحياة ، فقد عاشر الفقراء وألف حياتهم ، وصادق الأغنياء وهجر مودتهم ، والتحم باواسط الناس واخذ عنهم ، ودار مع الزمان دورات العسر واليسر وادرك ما فيها من موازين مختلة ، وفهم ما يغضب الناس وما يسرهم ، ووطن نفسه على قبول كل امر من الأمور وكانه هيأ نفسه مصلحا اجتماعيا أو واعظا دينيا يوقظ في الناس الشعور بانسانيتهم ويضرب لهم الامثال من الحيوان والجماد النبات لعلهم يتفكرون .

لقد كان فرحات صريحا كل الصراحة حين نظم تلك الرباعيات ومثله لم تكن له تلك الشجاعة ليهتف ان هذا هو الفساد وذاكم العلاج الناجح له ، وكان بعض زملائه في المهجر يركن إلى الرمز وسيلة للتعبير ،ويقص القصص اظهارا لما يدور في نفوسهم ، ولكن فرحات فتح باب الصراحة على مصراعيه ونادى هلُمّ للاصلاح وبعدا عن الافساد فحياة الانسان ارقى من ان تدنس أو يهان .

وحين كان يحتاج فرحات إلى التبسط في القول كان يختار الفكاهة اسلوبا ليفهم العامة قبل الخاصة بما يدور في خلده ، وليعلن على الملأ ان هاكم فرحات الثائر الهادىء المثقف البصير المصلح الاجتماعي بما وعاه عن معاشرة مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد ومن احتك بهم من بني الانسان ، وهذا ما حببني فيه وجعلني أهتم برباعياته .

فليت شعراء المهجر أو من جاء بعدهم كان لهم هذا السبق في محيط

الإصلاح الاجتماعي وتنمية الإنسان المسلم في مناهج فرحات في آيات معبودات وعمق فكره وبساطة قوله وحسائب حكمة

والله المستعان على ما يصفون

دكتور

عبد الرحيم محمود زلط